# أعقل أم جنون؟!

**بقلم الشيخ؛ محمد مصطفى المقرئ**

كم تبلغ المسافة بين العقل والجنون؟ أتدري أنها قد تضايق - أحياناً - إلى حد اللامسافة، أو اللا حد، أو اللا بَيْن؟ أتخال أنه يمكنُ اختزال ما بينهما حتى يتصل كلُ منهما بالآخر، أو يتلبس به، أو يمتزج معه؟!

وإن تعجب فعجب أن تراها – المسافة - بين لُبين - أيّ لُبين - تضيق وتتسع بحسبهما، اقتراباً من الحكمة أو بعداً عنها، وأنه ربما تنمحي خصائصهما، وتتلاشى الفوارق بينهما؛ فيتلاحمان، أو يتداخلان، أو يندمجان بحيث لا يتمايزان!!

والذي هو أعجب من ذلك: أن العقل والجنون قد يتعاقبان - على ذات بعينها - تعاقب الليل والنهار؟ فيغشاها ليل العقل عند حلول معطيات ما، ثم ينجلي عند معطيات تضادها أو تقابلها.. وهكذا دواليك، فإذا العقل والجنون يضمهما جميعاً قيضٌ واحد!!

روى أبو القاسم النيسابوري[1]، عن علي بن عبد المالك، قال: (كان بِطَرْسُوس[2] مجنون اسمه "رزام"، وكان إذا خرج المعسكرَ - يعني الجيش -؛ خرج مع الناس وأخذ سيفاً ودَرَقَةً، ولا يزال يلقى أعداء الدين، فإذا دخل في الحرب زال عنه جنونه، فإذا انقضى القتال، فعاد إلى البلد؛ رجع إلى جنونه) أ.هـ.

فكأنه قد يلم بالناس حال لا يتحقق فيه العقل - حق العقل - إلا بالقتال في سبيل الله، ولا يتجسد العاقل إلا في مُقاتل، ولا تُتلمس العقلانية إلا تحت ظلال السيوف!!

وعندئذ يكون الجنون - محض الجنون - تركَ القتال في سبيل الله، أو إيقافه، أو التروحَ منه.. فكيف بمنعه، والصد عنه، وقتال أهله... بل كيف بتجريمه، وتحريمه، وعده من المحظورات المحذورات؟!!

---

[1] "عقلاء المجانين" : (ص 155)

[2] قال ياقوت الحموي : "مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ، يشقها نهر البردان ، وبها قبر المأمون"

إن زوال الجنون - أو بقاءه - منوط بما يتحتم على العقل فعله أو تركه، أو بعبارة أخرى؛ إن إثبات صفة العقل - لذات ما - أو سلبها عنها مرجعه إلى شمائل الذات وسلوكياتها، على أننا نعني بالعقل عقلين:

أحدهما: العقل المفرد. والآخر: العقل الجمعي، أي الاعتباري الذي توصف به جماعة أو أمة أو مجتمع.. وهو - في منهج الإسلام -: صفة تثبت للأمة بدرجة ما، أو حكم (لها أو عليها)، بحسب ما تتمثله من خصائص العقل المجرد.

هذا.. وليس للعقل - في منهج الإسلام - أن يُحكَّم في مواجهة النقل، لأنه ينتفي عن العقل السليم؛ أن يتعارض مع الشرع الصحيح، وليس ما يخاله الناس تعارضاً إلا محض وهم أو إيهام، أو دليل إثبات يدمغ العقل بالجهل والقصور، أو برهان صدق على فاقة الإنسان وعجزه، فذانك وصمتان وُصمهما بطبعه وأصل خلقه.. {إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [الأحزاب: من الآية 72].

ولقد يصير الناس إلى واقع هو الجنون بعينه أو هو عين الجنون، جنون في الأفكار والتصورات، جنون في العقائد و "الأيدلوجيات"، جنون في الموازين والمعايير، في الأخلاقيات والقيم... ثم جنون في كل شيء...

جنون الترف والبذخ، وجنون الإسراف والإتلاف، وجنون الأزياء، وجنون الكرة، وجنون "الفن"، وجنون الشذوذ - والشذوذ جنون، ولكنه اليوم جنون الجنون -. وجنون العظمة، وجنون الملك - الذي لا ينقضي "فيروسه" بموت الحاكم، فيورثه لبعض ولده -.. إلى آخر مظاهر الجنون التي تعج بها الدنيا وتعاني منها الإنسانية المعذبة.. وأخيراً: جنون الساسة، ومجرمي الحرب، وعصابات النظام الدولي الجديد!!

وإذا تأملت في أحوال الأمم والشعوب، أدركت أن أبلغ حالات صور وجود هذه الأنواع كلها: متحقق في أمم الكفر وأنظمة الضلال، ولذلك فإن اللهَ جل وعلا نفى عنهم صفة العقل، وإن كانوا بحسب علم التشريح لهم مخ عضوي يبث إشاراته إلى أجسادهم، وقلب من لحم وأعصاب يضخ الدماء إلى عروقهم، وذلك حيث قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً* أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان: 43، 44]، وقال: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: 22، 23]، وقال: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ} [يونس: 42]، وقال: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]، وقال: {لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ} [الحشر: 14].

ثم إن عصاة المؤمنين داخلون في هذا الإجمال، كل بحسب بعده عن الإيمان، فأقربهم اتصافاً بالضلال؛ أعظمهم جنوناً وخبلاً، ونقصاً في العقل والفهم.

لأجل ذلك فإنني لا أرى العقل إلا في صبي يواجه دبابة بنبل!! أو شيخ هرم - ربما قد خرف - تهتز يده بحجر، يريد ليصوبه في نحر عدو مغتصب!! أو فتاة في عمر الزهور تلقي ثوب عرسها وتلبس حزاماً ناسفاً لتثأر لأبيها أو أخيها!! أو عجوز تجلس منصتة لفلذة كبدها، يقرأ عليها وصيته الأخيرة، وهي تبتسم!! أو ضابط يخلع بزته ويلقي أوسمته؛ ليأتمر بأوامر مقاوم شاب لم يتخرج من كلية عسكرية!! أو قاض يتنحى عن منصة الحكم، معتزاً بشرف القضاء، منزهاً له أن يُمتطى؛ ليلتحق بصفوف المعارضة!! أو رئيس تحرير، يكون آخر ما يسجله بقلمه: استقالته من صحيفة لم تحترم عقيدة الأمة وثقافتها!!

هذا.. وإن خير دواء لما نعنيه من جنون هنا يكمن في طاعة الله جل وعلا، وإن أعظم الجنون وأشده إهلاكاً لأهله؛ المعصية، ولا دواء للمعصية إلا التوبة، ولا أعون على تركها من الذكر، وقد روي "أن أبا مسلم الخولاني كان كثير الذكر، فرآه بعض الناس، فأنكر حاله، فقال لأصحابه: أمجنون صاحبكم؟ فسمعه أبو مسلم، فقال: (لا يا أخي، ولكن هذا دواء الجنون)[3].

وكذا القلوب بذكركم بعد المخافة تطمئنُّ
جُنَّتْ بحبكمُ ومَنْ يهوى الحبيب ولا يُجنّ؟

[3] "جامع العلوم والحكم" : (2/521) بتحقيق شعيب الأرناؤوط - ط : مؤسسة الرسالة - بيروت لبنان - 1417هـ - 1997م

فيا أيها العاقل.. أترانا إلا مجانين؟ وهل ترانا نُشفى من جنوننا، ونكبح جماح الجنون بيننا ومِن حولنا.. إلا بأن نفعل كما فعل "رزام"؟

ولكن اعلم: أن جنوننا غير معفٍ لنا من التكليف، بل إننا ما جننا إلا بسبب ترك التكاليف، ونتيجة تملصنا من الواجبات، ولعلة إقرارنا لمظاهر الجنون.

إن الفارق بيننا وبين من قبلنا: أن مجانينهم غير مكلفين، ومكلفونا؛ مجانين.

وأن الجنون في زمانهم يُفقد المكلف أهليته (أداء ووجوباً)، ولكنه في زماننا لا يفقد مكلفنا أهلية ولا ينقصها، بل ثبوتها وانتفاءها - في زماننا - سواء.

وأنه كانت لهم عقول يُذهبها؛ أن تخدش الكرامة فضلاً أن تداس، أو أن يمس الشرف فضلاً أن ينتهك، أو أن يُعتدى على الأرض فضلاً عن العرض... فإذا ذهبت العقول فإلى ميادين تبدوا فيها مجنونة، وهي تقتحم المهالك اقتحاماً، وتطلب الموت مظانه، والحق أنها - وقد أفقدها الظلم حلمها وصوابها - لا تجد ضالتها إلا ثَمَّ.

وليس لنا عقول، وإلا فكيف نعايش كل ما حولنا من جنون وشذوذ؛ ولا نُجَنُّ؟!

وكانت تصرفات مجانينهم تقع كلها باطلة، وتصرفات مجانيننا تقع كلها معتبرة، إلا جرائمهم، فإنهم بها لا يؤاخذون.

يبيع مجانينهم مُداً من بُر يملكونه؛ فيبطل البيع، ويبيع مجانيننا وطناً بأكمله لا يملكونه، فيُمضى العقد، ويصفق لهم الناس!!

يَحْجُر عقلاؤهم على مجانينهم، ويحجر مجانيُنا على عقلائنا (إيقافاً أو إبعاداً أو اعتقالاً..) إلى آخر صور القهر ومصادرة الحريات!!

يُعين على مجنونهم وصيٌ، ويعين مجانيننا على شعوبنا أوصياء!!

فقل لي بربك..

أليس بعض هذا كافياً لنُصاب جميعاً بالجنون؟ وإن جنوننا - عندئذ - لا يتجاوز نصفَ المعادلة لا غير، ونصفها الآخر: أن نعقل كما عقِلَ "رزام".. وإلا فنحن والطغاة سواء.

إنني أتصور أنه لا شفاء لنا إلا في مصحات نفسية وعقلية متخصصة، ولست أراها إلا في ميادين الشرف في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وجوجارات... وسائر خنادقنا المصلية بنيران أعدائنا، بل ثم مصحاتٌ تقع على قيد خطوات منا نراها جاثمة فوق خارطتنا الإسلامية والعربية طولاً وعرضاً، ولكن ثبط الأمة عن الرغبة في العلاج أمور:

**منها:** وصم سعيها للعلاج - كما فعل "رزام" - بالتهور!! ولقد يكون ذلك صحيحاً، ولكن صحيح أيضاً: أن تأخرنا في فهم ما يجب فعله، وتخلينا عن الفاعلين؛ هو الذي جعلهم في وضعية من القلة والضعف دون ما يجعل الإقدام حكمة.

**ومنها:** غياب مرجعية إسلامية واحدة، تجمع ولا تفرق، وتجعل الولاء للإسلام مقدماً على الولاءات الحزبية والفكرية الضيقة.

**ومنها:** تخلي شيوخ الأمة عن شبابها، فبات الحماس بين مذمتين: إما أن ينفلت بلا حكمة، وإما أن يبرد ويتبلد ويتبدد مع الزمن دون استثمار مرشد... أو أن يجهضه الأعداء قبل أن ينضج.

**ومنها:** الحسابات الخاطئة: وقد بات المتبادر إلى الذهن - عند ذكرها - تعلقها بصور الإقدام وحده، مع أنها - وبالضرورة - تتعلق بالإحجام أيضاً.

**ومنها:** إقحام الحسابات الشخصية، والمصالح الحزبية في تقويم أمور الأمة، وتكييف القضايا الفقهية حيالها، وتحديد المواقف الواجبة. وقد امتد هذا الإقحام حتى شمل بياناتنا وتصريحاتنا وخطابنا الإسلامي عموماً.

**ومنها:** التزام التراجع والعجز أمام هاجس الفشل، وضعف روح المحاولة "المنضبطة"، وإهمال تهيئة النفس لاحتمالات الخسارة. حتى صار الحديث عن "الانضباط" و "الحكمة" و "رعاية المصالح" مجرد مشجب نعلق عليه

عجزنا، ومحض غطاء لستر رغباتنا في السلامة والدعة، وليس ذلك مما يقتضيه الصدق والتجرد والموضوعية.

على أني أفرق بين المصلحة الخاصة المجردة، وبين المصلحة الخاصة ذات الاتصال بالمصلحة الشرعية الحقيقية الراجحة، أو التي تكون في معناها.

**ومنها:** الاستغراق في وهم التفريق بين عدو سافر ظاهر العداوة، وبين عدو متستر في هويات عقيدية، أو ولاءات وطنية، وهو تفريق لا م وجب له، بل بعض صور عداوة هذا الصنف الأخير أبين وأخطر، وهي في الكثير الغالب مجرد قفازات وآليات ووسائل محلية لتمكين العدو الأجنبي!!

**ومنها:** التعلق بوهم رضا العدو، ومن ثم المسارعة في تقديم فروض هذا الرضا، وإثبات "حسن النوايا"، والبرهنة على "اعتدال المنهج"، ولو بالتخلي عن مقتضيات الواجب الشرعي، والإحجام عن اتخاذ الإجراء الصحيح حيال هذا العدو!!

ولقد يبلغ الأمر - في ذلك - أن نهدر قيمة الولاء العقدي، فنذم المخالف ونحرض عليه، ونغري به عدوه وعدونا، توصلاً إلى مسامحته لنا وغضه الطرف عنا، علماً بأنها إن حصلت فهي محدودة مؤقتة، ولمجرد المناورة السياسية، والمخادعة المرحلية.

**ومنها:** التمحك بآراء فقهية مختلفة المناطات عما نحن فيه، إذ التباين بين واقعين مانع من المساواة بينهما، وإلا فهو جمع بين مختلفين، ولا يستقيم - في بدهيات الشريعة - أن يسوى بين الفسق والزندقة، ولا بين الامتناع والردة، ولا بين ظلم الحاكم وخيانته، ولا بين الضرر القاصر والمتعدي، ولا بين ترك قتال أعداء الأمة وقتل الأمة من أجل أعدائها.

**ومنها:** تقويم المفاسد في حدود الواقع الكائن دون النظر إلى مآلاته، ومدى ما يمكن أن يصل إليه لو تركت تلك المفاسد، وأن واقع الأمة قد يصل إلى حد لا يرجى معه صلاح ولا تغيير، بل ولا تبقى تلك المصالح التي نُسَوِّغ - لأجلها - ترك التغيير.

**ومنها:** تعميم الرؤى الفكرية التي تتعلق بواقع بعينه أو بتجارب تاريخية ذات ظروف خاصة، دون مقتضى اجتهادي فقهي صحيح، حتى استحالت أراء ومذاهب فرعية أصولاً وثوابت، وأنزلت منزلة العقائد وأصول الإيمان. وبدهي أن خطأ تعميم الرؤى يقع في الحظر والجواز جميعاً، وهما يدوران مع المصلحة الشرعية حيث دارت، على أن تكون المصلحة حقيقية قطعية كلية منضبطة، وهو ما يمتنع القول بامتناعه على كل حال، وفي كل وقت، على هذا النحو من الإطلاق الذي يقول به البعض.

وجملة: قد تكون الحكمة عين الحكمة كامنة فيما يسميه المغرضون جنوناً، أو فيما يبدو لفاقد الحكمة، أو أعمى البصيرة ضرباً من اللاعقل، والحكمة سر من أسرار الله (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ} [البقرة: 269]، وهي لا تطلب على تمامها إلا من المصدَرين العظيمين الكتاب والسنة، وما من قول أو عمل يوصف بالحكمة - بحق - إلا وله موافقة لهذين الأصلين ولو من بعض الوجوه.

ويبقى السؤال مطروحاً - في كثير من مواقفنا وآرائنا - أعقل أم جنون؟

## حاشية:

قدرت أعداد حجيج بيت الله الحرام بثلاثة ملايين حاج، أو مليونين ونصفٍ على أقل تقدير!!

وددت لو أن مائة ألف منهم فقط - بعد فراغهم من مناسك الحج - توجهوا - وعليهم ملابس إحرامهم إلى بغداد، ولو سيراً على الأقدام، ليقيموا بأجسادهم حائط صد، دون أطفال رضع وشيوخ ركع، وليكوِّنوا بصدورهم دروعاً بشرية، تقي المستضعفين في العراق بعض ما هو نازل بهم.

كنت أود لو أني صرخت فيهم - قبل أيام – أن؛ هلموا إلى هناك، ولعلي لو فعلت؛ ما استجيب لي، ولو استجيب لي؛ لتولت قوات "أمننا منعهم، وليس مهماً عند قوات "أمننا" كم ستكلف عملية منع تلك الحشود من ضحايا في صفوف الحجيج، ولا حتى في صفوف القوات نفسها!!

# منبر التوحيد والجهاد

* * *

sw.dehwat.www//:ptth
sw.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth

## موقعنا على الشبكة

sw.dehwat.www//:ptth
moc.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth

**منبر التوحيد والجهاد**

sw.dehwat.www
sw.esedqamla.www
ofni.hannusla.www
moc.adataq-uba.www